كيف ينبغي أن نتفاعل مع الشكوك حول الإيمان

القديس ثيوفان الحبيس

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

تقريباً، لدى كل شخص شكوك حول الإيمان في وقت أو آخر. مع ذلك، من الممكن تبديدها بالحجج المتعارضة التي تؤكد حقيقة الوحي الإلهي في ما يتعلق بالعالم والبشرية: نظام الكون وتناغمه، معجزة الحياة، كل عجائب الله وقديسيه الخارقة للطبيعة والرائعة، وقبل كل شيء شهادة ضمير النفوس الحسنة النية الطاهرة.

إن أعمال الله، التي هي دليل على رعايته التدبيرية، متعددة الأوجه. منها وجه واحد واضح للغاية، وجه آخر مضيء وحكيم، آخر غير شفاف ويصعب فهمه. مع ذلك، هناك شيء آخر مظلم، وبالتالي فهو غير مرئي. هذا هو الجانب الأخير الذي يثير الشكوك. ولكن هذا نتيجة لحقيقة أن الرب رتب الأمور على هذا النحو لاختبار مدى صحة بحث نفسنا عنه وما إذا كنا متواضعين. كما ترون، لا يمكن الاقتراب من الله وأعماله ومعرفتهما إلا من خلال التواضع.

أنتم تؤمنون أنه حيثما يكون الله وحقيقته موجودَين، أي في كل مكان، يجب أن يفيض كل شيء بالنور، ويجب أن يكون محسوساً بالحواس، وملهماً للنفوس بقوة، ومعلناً لاهوته بصوت عالٍ. ألا ترون أنكم، بالتفكير بهذه الطريقة، تحاولون تحديد الطريقة التي يجب أن يتصرف بها الله؟ أنا متأكد من أنكم توافقون، أن هذا لا يمكن تصوره، لأنه لو حدث ذلك فإن النظام الطبيعي للأشياء برمته سوف ينهار.

إن أعمال الله إلهية في حد ذاتها، لكن لاهوتها مخفي بحجاب غير مرئي. لماذا؟ لن أقول أكثر من هذا: هذا ما أراده الله. لا يمكن تمييز مشورات المحبة والحكمة الإلهيتين. ومع ذلك، ليس هناك شك في أن هناك جمالًا لا يوصف ووفرة من النور خلف هذا الستار الذي يمنع غير المؤمنين من رؤية الحقيقة. يقول القديس بولس: "لأَنَّ أُمُورَهُ غَيْرَ الْمَنْظُورَةِ تُرَى مُنْذُ خَلْقِ الْعَالَمِ مُدْرَكَةً بِالْمَصْنُوعَاتِ، قُدْرَتُهُ السَّرْمَدِيَّةَ وَلاَهُوتُهُ، حَتَّى إِنَّهُمْ بِلاَ عُذْرٍ" (رومية ١:٢٠). لكن على يدِ مَن؟ فقط أولئك الذين يؤمنون وقد اقتنوا حسن النية. وبالطبع، ليس أولئك الذين يؤمنون شكلياً، بل الذين يعيشون بطريقة ترضي الله.

عليكم أن تكسروا حبة البندق لتأكلوا النواة اللذيذة والمغذية. الرب لا يكشف أسراره للجميع ولا يلقي الدرر أمام الخنازير. لهذا السبب، عندما تحدَّث إلى الناس عن مملكته، قال لهم الأمثال. إن الذين اقتنوا الإمكانيات الروحية فهموها وأنارَهم الحق.

عندما تسقط البذور في الأرض، تعتقدون أنها تتعفن وتضيع. ولكن بالقوة التي وضعها الله فيها، فإنها تنبت وتنمو وتنتج بكميات كبيرة. وينطبق الأمر نفسه على بذور الكلمة الإلهية. إنها مزروعة في قلوب كل البشر، لكنها تنبت فقط في القلوب الخصبة.

حقيقة أنه ليس الجميع يؤمنون لا تعني أن الإيمان ضئيل على الإطلاق. لا تهتموا بغير المؤمنين. انظروا إلى الذين يؤمنون حقاً وسترون ما يستمتعون به من خلال إيمانهم. الإيمان المسيحي ليس نظاماً فلسفياً ولكنه طريقة المسيح، كإله وإنسان، لإصلاح الساقطين بنعمة الروح القدس. لذا انظروا بعناية إلى الذين يسيرون

على خطى المسيح. وسوف ترون كيف ينمون تدريجياً، وكيف ينضجون روحياً وكيف يصبحون عظماء، حتى ولو كانوا غير مهمين بنظر بقية العالم.

خذوا القديس سيرافيم ساروف كمثال. كان رجلاً بسيطاً غير متعلم. أي سمو قد بلغه؟ بكلمة أوقف أفواه غير المؤمنين الذين كانوا مقروئين على نطاق واسع: "بلِ اخْتَارَ اللهُ جُهَّالَ الْعَالَمِ لِيُخْزِيَ الْحُكَمَاءَ. وَاخْتَارَ اللهُ ضُعَفَاءَ الْعَالَمِ لِيُخْزِيَ الأَقْوِيَاءَ. وَاخْتَارَ اللهُ أَدْنِيَاءَ الْعَالَمِ وَالْمُزْدَرَى وَغَيْرَ الْمَوْجُودِ لِيُبْطِلَ الْمَوْجُودَ"(١ كورنثوس ١:٢٧-٢٨). هكذا تتجلى النعمة الإلهية في كل مَن يستسلم لها.

لذلك يدعوكم الرب إلى الإيمان. يريد خلاصكم. وستخلصون إذا استمعتم إلى صوته واتبعتموه بثبات دون تردد. من أجل من يحبكم كثيراً دوسوا كلّ شك. وبهذا تقدمون له أكبر تضحية وتكافَؤون بسخاء. إن الشكوك هي حشائش زرعها العدو في حقل روحكم بين سنابل القمح. لماذا تسمحون له بأن يدمركم؟ اطردوه واقتربوا من المخلص الذي يمد يده إليكم بحنان. واضِعوا أنفسكم، لأن الله، كما قلت، يكشف نفسه للمتواضع فقط. صلّوا لأن صلاتكم تسيّجكم وتحميكم من هجمات العدو. واتخذوا قراراً حازماً: لا تفكّروا في أي شك. بمجرد ظهور الشكوك، اطرحوها من عقلكم دون أي مزيد من اللغط، بغض النظر عن مدى معقولية ما تبدو عليه. بهذه الطريقة، ستضعون حداً لجميع مكائد العدو.

Source: Άγιος Θεοφάνης ο Έγκλειστος: Πως να αντιδρούμε στις αμφιβολίες για την πίστη μας. Βηματος Ορθοδοξιας . 16/5/2023.
https://www.vimaorthodoxias.gr/theologikos-logos-diafora/agios-theofanis-o-egkleistos-pos-na-antidroyme-stis-amfivolies-gia-tin-pisti-mas/